أندريه مالرو

لعل من النادر أن نرى بين أدباء الغرب المعاصرين أديباً يمثل روح العصر الحاضر مثل الأديب الفرنسي أندريه مالرو . وهو من هذه الناحية ، ومن حيث تأثير فنه على عقلية شباب هذا الجيل الذي نعيش فيه يقف إلى جانب الكاتب الكبير أندريه جيد ، إلا أن كلا منهما يتميز من حيث المشكلة التي يطرقها ويسعى لحلها . فأندريه جيد يكاد يقتصر فنه على معالجة المشكلة الجنسية التي يعتبرها مشكلة المشاكل ، بينما يطرق مالرو الشخصية الإنسانية بأكملها ، بكامل غرائزها ، ساعياً لتحديد موقفها في هذا العصر المضطرب الطافح بالإنقلابات والتطورات .

وأندريه مالرو منذ ابتداء حياته الأدبية كاتب اجتماعي لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن للأديب أن يبتعد عن معالجة مشاكل المجتمع الذي يعيش فيه واتخاذ موقف محدد حياله . ولذا فهو عدوّ لذلك النفر من الأدباء الذين آمنوا بما أسموه مذهب (الفن للفن) أو (البرج العاجي) يقبعون فيه غير عابئين بما يدور حولهم من مآسي الحياة ونكباتها حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى اعتبار أن مجرد المساس بحقائق الحياة المحزنة الدامية تشويه لـ « جمال » فنهم !

ولم يقتصر مالرو على استخدام القلم لخدمة المجتمع الإنسانى ، بل كان يهب كلما سنحت الفرصة ليخدم بقوة السلاح المبادىء السامية التى يؤمن بعدالتها . فلم تكد تنشب ثورة الصين التحريرية بعد الحرب العالمية الأولى حتى سافر إليها يعمل إلى جانب جيوش الوطنيين فى سبيل المثل الأعلى الذى كانت تدافع عنه وهو التحرر من الاستعمار الأجنبى . وعند ما قامت الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦ بادر بالسفر إلى إسبانيا ليعمل فى جيوش الجمهورية الشابة كطيار مدافعا عن سماء مدريد الشهيدة أثناء حصارها . وأخيرا لم تكد فرنسا تخر على ركبتيها عام ١٩٤٠ حتى عاد مالرو إلى حياة الكفاح العملى ، فأبى أن يهجر وطنه فى محنته وانضم إلى حركة المقاومة السرية ليكافح الغاصب . ورغم هذه الحياة المضطربة الخطرة لم يهمل مالرو قلمه ، وهو سلاحه الأول للتعبير عن تفكيره ، فاشتغل فى كتابة قصة طويلة من ثلاثة أجزاء بعنوان (الصراع مع الملاك) La lutte avec L'ange نشر الجزء الأول منها ، وهو (أشجار ألتنبرج) Les noyers de l' Altenburg فى سويسرا عام ١٩٤٣ ، والحرب فى أوج سعيرها .

* * *

كانت أول أعمال مالرو إصداره كتاباً صغيرا بعنوان (إغراء الغرب) La tentantion de l. occident ، وهو عبارة عن خطابات

يقارن فيها الكاتب بين مدنيتين . . الشرقية والغربية ، ونحس حين قراءتها بألمه وخيبة أمله فى مدنية الغرب . وسرعان ما لفت هـذا الكتاب الأنظار إلى مؤلفه الذى أحس النقاد بنواحى التجديد فى تفكيره وما يختزن فى صدره بما يبشر بظهور لون جديد من ألوان الأدب العالمى . وفى عام ١٩٢٨ ظهر كتاب مالرو الثانى (الغزاة) Les conquérants وهو أقرب إلى تحقيق صحفى réportage منه إلى قصة . وفى عام ١٩٣١ ظهر كتابه الثالث (الطريق الملكى) La voie royale وفى عام ١٩٣٣ أخرج مالرو قصته الشهيرة العالمية (الطبيعة الإنسانية) La condition humaine التى نال بها جائزة جونكور لذلك العام ، وهى أكبر الجوائز الأدبية الفرنسية .

وتفكير مالرو الذى يسيطر على جميع أعماله يتحدد منذ صدور كتابه (الغزاة) ثم يجلو ويبلغ أقصى وضوحه فى كتابه (الطبيعة الإنسانية) . كانت هاتان القصتان نوعا جديدا فى الأدب الغربى إذ لم يسبق أن عالج الفن القصصى مشاكل المدنية الغربية بالطريقة التى عالجها بها مالرو فى هذين الكتابين وسار على نهجها فى كتبه التالية ، وذلك من حيث التجديد فى الفكرة وحرارة الأسلوب وطهارة الإخلاص .

يرى مالرو أن الإنسان منذ فجر التاريخ يميل بطبيعته إلى الثورة على الأمر الواقع وتحسين الحالة الراهنة واكتشاف ما يحيطه من

المجهول . ولقد كانت الأديان أقوى وسيلة لتهدئة هذا الجموح الطبيعى وإطفاء هذا الغليان الغريزى ، وظل تأثيرها قوى المفعول مدى قرون طويلة وأحقاب عديدة . ولكن الآن والمدنية الغربية قد بلغت مرحلة لا احترام فيها للعقائد . ولا مراعاة لسنن الأديان ، بل ولا اعتبار للأسس التى قامت عليها هذه المدنية التى أوشكت أن تنهار دعائمها بعد أن طفحت القلوب بالشك فى قيمتها . . . الآن ماهو موقف (الإنسان) و (النفس الإنسانية) ؟ ما هو موقف الفرد الأوروبى أو غير الأوروبى إذا كان من أبناء المدنية الحديثة المتأثرين بتياراتها ، المتحررين من كل قيد تقليدى ؟ يرى مالرو أن الإنسان الجديد يقف أمام أحد أمرين لا ثالث لها ، فإما الاستسلام للأمر الواقع والتردى وسط هذه الفوضى الغاشمة التى لا ضابط لها ولا حياء فيها ، وإما التعلق بمثل أعلى لخدمة نفسه وخدمة المجتمع البشرى ، كما يتعلق الغريق المحتضر بقارب النجاة .

أما الأمر الأول فهو طريق الضعفاء ، فوق أنه لا يتضمن جمال الإحساس بالقيام بعمل سام . وأما الأمر الثانى فهو الطريق السوىّ الطبيعى لذوى النفوس العالية والإنسانية الواسعة ، وهو الطريق الذى اختاره مالرو لأبطاله ، مصورا حياتهم وطريقة تفكيرهم وضروب تضحيتهم وسمو إيمانهم . فنرى (جارين) فى قصة (الغزاة) و (كيو) فى قصة (الطبيعة الإنسانية) شخصيتين من تلك الشخصيات

التى لا تستطيع الخضوع لحياة لا غرض لها إلا قضاء أيام متشابهة مملة . فهما يعانيان ذلك المرض الذى لا يختلف كثيراً عن المرض الذى يسمونه «مرض القرن» والذى — كما يرى مالرو — هو بالنسبة لفئة من الناس مرض جميع القرون . . إن هذه الدنيا لا تكفيهم . إنها لا قيمة لها إذا لم تمنحهم الفرصة لانفجار كل نواحى الكفاح والنشاط فيهم . إن حياتهم لا مبرر لها ولا قيمة إذا لم يحققوا للإنسانية أفكارا سامية . ولما كانت كل مصائب المجتمع الحاضر مبعثها الظلم الاجتماعى وعلاجها إيجاد مجتمع بشرى تسوده العدالة الاجتماعية والإخاء الإنسانى، لهذا تعمد مالرو اختيار أبطاله من رجال المثل العليا فى السياسة والاجتماع . فإصلاح المجتمع فى نظره وتسييره فى الطريق الذى تفرضه روح العصر هو الأساس الذى بغيره لا يرجى إصلاح فى العلم أو الفن أو الأدب أو الأخلاق أو غيرها .

كان (جارين) ثائراً على كل شىء . كان ثائراً على المجتمع . كان ثائراً على الغرب ومادیته فهجره إلى الصين حيث الملايين الحاشدة ينشر بينها تعاليمه ويبين لها حقها فى الحياة . كان ثائراً على الدين لأن الأديان — فى نظره — كانت دائما على مر القرون هى الميناء الذى تهدأ عنده ثورة النفوس البشرية ويخمد جموحها ، كانت العزاء والملاذ الأخير لكل منكوب (إذ كيف يمكن لمصاب بالبَرَص — كما يقول — أن يستسلم لمصيره ولا يسمم الآبار التى يقترب

منها إذا لم يفض قلبه بالأمل فى حياة ثانية حيث تعوضه العدالة عن مصيبته وينال النعيم الأزلى ؟) .

فـ (جارين) يريد إذن أن يعيش واقعياً بكل ما فى هذه الكلمة من معان . إنه يريد أن يحقق الجنة الأرضية لأنه مثالى يؤمن بالمثل العليا ويوقن بإمكان تحقيقها بالجهاد والتضحية . إنه يستهين بالمخاطر ويواجه الموت إلى جانب الأحرار الصينيين فى ثورة كانتون راضيا مطمئنا . ومثل شخصية (جارين) نرى شخصية (كيو) وشخصية الطالب (تشن) فى قصة (الطبيعة الإنسانية) ، هذين الشابين الصينيين اللذين آمنا إيمان المؤمن بدينه بعدالة قضية الصين فى جهادها التحريرى . هذه الشخصيات الثلاث نراها جميعاً تلقى بنفسها فى ذلك المحيط الثورى بقوة عنيفة ودافع خفى مستعذبين كل تضحية ، لأن المثل الأعلى عندهم دين كسائر الأديان ، والدين فى حاجة إلى شهداء . ومن ذلك نرى أن أندرية مالرو لا يعتقد أن هناك فرقا بين هؤلاء المثاليين وأولئك المتدينين الأوائل الذين كانوا يحطمون الأوثان وأقصى آمالهم فى الحياة أن يتعذبوا من أجل عقيدتهم . فتصوير نفسية هذا النوع الشائع من الشبان المثاليين المتحمسين ، الذين لم يحسن المجتمع توجيه غرائز الطموح فيهم ، هو أهم ما يطبع كتب مالرو بطابع القوة والتجديد .

وللقارىء أن يتساءل : لم اختار مالرو حوادث قصتيه (الغزاة)

و (الطبيعة الإنسانية) فى الصين النائية كما ذكرنا . أليس فى بلاد الغرب مجال لظهور هذه الشخصيات ؟ ألم يجد فى غير الصين مجالا لظهور الأبطال وأعمال البطولة ؟ إن مالرو العالمى التفكير يتبع النهضات القومية أينما هبت . فكما اشترك بنفسه فى كفاح الصينيين القومى، مما أوحى اليه كتابة قصتيه المشار إليهما، كذلك حارب فى صفوف الجمهوريين الإسبان كما عرفنا وكتب عن الجمهورية الشابة قبل انهيارها المبكر كتابه المشهور (الأمل) Espoir (١٩٣٧). ولقد وجد مالرو فى هذه البلاد الحية بحركاتها الشعبية مجالا خصبا لذلك النوع من الأبطال الذين اختارهم لقصصه . فهو يرى أن العالم الغربى أصبحت تسوده للأسف روح الوطنية المتعصبة. فالحدود مغلقة ، والمادية تطغى على كل شىء ، والفردية يلمسها المرء أينما حل . فأوروبا الآن فى نظر مالرو لم يعد فيها إلا نوعان من الكفاح : الأول كفاح العالم الذى يفنى السنين فى اكتشاف علمى ، وهذا الأمر ليس فى متناول غير العلماء المتخصصين ، والثانى كفاح رجل الأعمال لتكديس الأموال ، مما صبغ الحياة كلها بالمادية التى لا تعرف الرحمة . أما هناك ... هناك فى ذلك الشرق البعيد حيث ألف بين الناس البؤس المشترك والشقاء العميم ، حيث وحّد بين قلوب الملايين الغفيرة الإيمان القوى والقلق العام والحساسية المرهفة ، هناك الحقل اليانع لأصحاب المبادىء السامية والمثل العليا

الجريئة التى سرعان ما تشبث بها الجماهير وتتفانى فى خدمتها بمجرد إحساسها بأنها طريق الخلاص ، واقفة منها موقف المؤمن بدين جديد جاء ليغير حياته ويبعثه بعثاً جديداً .

* * *

ولقد مدت الحرب الأخيرة ومحنة فرنسا فيها أندريه مالرو بمادة غزيرة لدراسة الشخصية الإنسانية فى ظروف جديدة وأماكن غير الأماكن التى وقعت فيها حوادث قصصه السابقة . فكتب أثناء الحرب كتابه (أشجار ألتنبرج) Les noyers de l'Altenburg وهو كما ذكرنا الجزء الأول من قصة طويلة فى ثلاثة أجزاء بعنوان (الصراع مع الملاك) La lutte avec l'ange .

و (أشجار ألتنبرج) عبارة عن ثلاثة أقسام ، القسم الأول تقع حوادثه فى يونية عام ١٩٤٠ فى أحد السجون فى بلدة شارتر بفرنسا ، وفى القسم الثانى يصف الكاتب حياة والده حتى الحرب العالمية الأولى ، فنعرف منه أن والده ألزاسى المولد ، بقى فى الإلزاس حتى عام ١٨٧٠ ، ثم عين مدرساً فى جامعة استانبول ، وأختير بعد ذلك مستشاراً للجنرال أنور باشا ، ثم أرسل فى مهمة إلى أفغانستان ، وبعد سنين طويلة فى تلك البلاد الشرقية يعود إلى وطنه الألزاس حيث يموت والده (جد الكاتب) بعد وصوله بفترة قصيرة ، وفى الإلزاس يشترك فى أحاديث ألتنبرج ، وهى أحاديث تدور عن

موضوعات معينة فى كنيسة قديمة حيث يجتمع تحت زعامة عمه « والتر » نخبة من المثقفين والعلماء والأساتذة من مختلف البلدان . وفى عام ١٩١٥ تقوده الحرب إلى جبهة الفستولا حيث يشترك فى هجوم بمساعدة الغازات السامة . وهناك يترك المؤلف والده مغشياً عليه فى ساحة القتال ، منهـــك القوى إثر المناظر الوحشية التى شاهدها ومن تأثير الغـاز ، يتركه ليعود إلى نفسه . وعندئذ يبدأ القسم الثالث من القصة ، فنرى أنفسنا فى عام ١٩٣٩ نصحب المؤلف فى سيارته المدرعة حيث يواجه مع رفاقه الموت الحاصد الذى يخرجون منه بأعجوبة فينظرون إلى العالم تحت ضوء فجر جديد لامع وبعيون جديدة ، عيون نسيت الماضى ولم تعد تعرف غير الحاضر . وهنا تنتهى قصة (أشجار التنبرج) أول جزء من قصة (الصراع مع الملاك) .

ومنذ بداية هذه القصة أيضاً ، فى ذلك السجن الموحش المعزول عن العالم الخارجى نرى أندريه مالرو يعود إلى موضوعه الرئيسى وشاغله الأول فى كل كتبه وهو (الإنسان) . . اسمعه وهو يقول (منذ عشر سنوات لا يشغلنى ككاتب غير موضوع واحد هو الإنسان ، ذلك هو الموضوع الأساسى فى فنى) وهـذا الشاغل نلمسه يتملك والده أيضاً حين يقص علينا مالرو حياته ويروى لنا (مقابلاته) مع الإنسان ، والتى ما هى إلا مقابلاته الشخصية

مع الموت والقسوة الإنسانية والقدر الغير مفهوم .

يقول مالرو على لسان والده (إن اللغز الأكبر ليس فى أنه ألقى بنا دون حساب بين المواد المتفجرة الغزيرة وبين الكواكب، بل أننا ونحن فى هذا السجن كنا نستمد من أنفسنا صورا قوية لنكذب واقع حياتنا وهو أننا كائنات لا وجود لها) وهذا اللغز هو ماتريد (أحاديث ألتنبرج) أن تكشفه . فكل المناقشات تدور حول هذه المسألة .. هل يمكن إيجاد تحديد معين لمعنى كلمة إنسان ؟ إن الإنسان بمعناه الحقيقى ماهو الا أسطورة ، هو حلم فى ذهن المفكر) فما الذى نعرفه عن الإنسان ؟ إننا لا نكاد نعرف شيئاً (فحتى الثقافة لاتعلمنا شيئا عنه . إنها تعلمنا بكل بساطة ماهية الرجل المثقف بقدر ماهو عليه من ثقافة) إننا نعرف فقط (إننا لم نُخير حين ولادتنا ، وأننا سوف لا نُخير عند موتنا ، وأننا لم نختر والدينا ، وأننا لا نستطيع شيئا حيال الزمن ، وأن بين كل منا وبين العالم فاصلا معينا . وعندما أقول إن كل إنسان يحس بقوة بوجود القدر فإنى أقصد أنه يحس — بحرارة ومن وقت لآخر على الأقل — باستقلال الكون عنه وإهمال المجتمع لشأنه) .

هذا الإحساس المرير من جانب الفرد بعزلته فى هذا العالم مما دفعه إلى التعلق بالقدر والاستعانة بالخيالات والأوهام لتبرير حياته والرضا بما هو فيه من هوأن هو فى نظر مالرو نتيجة تفكك الروابط الاجتماعية فى حياتنا الحاضرة وطغيان المادية على كل

اعتبار آخر ، حتى هانت القيم البشرية ، وأصبح الاستهتار بكرامة الإنسان وحياته وتضحيتهما هشيما سهلا فى سبيل المآرب الذاتية أمراً ما أهونه فى هذا العصر ، هذا العصر الذى سماه مالرو بحق وأطلقه عنواناً لأحد كتبه الخالدة : (عصر الأزدراء) للمخلوق البشرى Temps de mépris l

فالقدر الذى نصادفه فى قصص مالرو هو ذلك الملاذ الغامض الذى يلجأ إليه الإنسان حين يحس بوحشته فى هذا العالم وتتهاطل المظالم والنكبات عليه دون أن يعرف لها مبررا أو تفسيرا . فلكى ننتزع الإنسان من استعباد القدرية ونحرر شخصيته ونرد له اعتباره يجب — كما يرى مالرو — أن نخلق له مجتمعا واقعيا تسوده قوانين العلم والمنطق ، مجتمعا يحس فيه بوجوده ويدرك بين أحضانه أنه يعمل للمجموع ويعمل المجموع له . وهذا المجتمع لا يتحقق إلا بنظام تسوده العدالة والإخاء البشرى وتبرز فى ظلاله قوى الفرد نواحى نشاطه لتتسلط بقوة العقل على قوى الطبيعة الغاشمة وتخضعها لخدمة الإنسان بدل أن تخضعه هى لطيشها وعتوها .

وأسلوب مالرو أسلوب حزين ، عميق كتفكيره ، جامح كفنه الرائع ، ذلك الفن الذى يضعه فى مقدمة كتاب العصر التقدميين ، والذى تنبض أرجاؤه بتلك العالمية الواسعة وذلك الهم الذى يحمله فوق ظهره فى سبيل الإنسانية وخيرها .